بيلاطس « باشا »

للأستاذ عباس محمود العقاد

بيلاطس هو الوالى الرومانى الذى حكم البلاد اليهودية من قبل الامبراطور طيبريوس عشر سنوات ظهر فى أثنائها السيد المسيح وسيق إليه متهماً بما نسميه اليوم « الخيانة العظمى » والانتقاض على النظام القائم والدولة الحاكمة . فخشى بيلاطس أن يطلقه وأشفق من الحكم عليه وهو لا يدينه بجريمة ، فأسلمه إلى قومه يدينونه بما عندهم من شريعة ، ويجزونه بما اصطلحوا عليه من عقاب

وكان بيلاطس رجلاً حاذقاً أريباً ولكنه فى بعض الأمور معوج الأساليب معرض للريبة والشكاية إلى « المراجع العليا » كما نقول اليوم

فمن أساليبه أن اليهود ثاروا عليه بتحريض الكهنة والرؤساء فلم يقمعهم بقوة القانون ، ولم يرسل عليهم الجند ظاهرين ، ولم يحمل أمام الناس وأمام المراجع العليا تبعة القمع والقسوة فى علاج هذه الثورة ، بل ألبس الجند ثياب الشعب وسلحهم بالمدى والخناجر وأمرهم أن يندسوا فى غمار الشعب الهائج فيمعنوا فيه تجريحاً وتقتيلاً حتى يتفرق الجمع وتثوب المدينة إلى السكينة ، ولا جناح عليه فيما زعم ، فإنما هى مشاجرة جامحة بين يهود ويهود !

أمثال هذه الأساليب مع شىء من الطمع وشىء من الترف هى التى أخافته من اليهود ومن رفعهم أمره إلى عاهل الرومان فأسلمهم السيد المسيح وهو يقول فى ضميره كما هو رأيه : يهود فى يهود !

هذا هو بيلاطس . فمن أين جاءته الباشوية التركية ولم تظهر لها دولة فى أيامه ، ولم يكن لها معنى فى ذلك العهد معروف ؟

لم تجئه الباشوية التركية ولكنها جاءت إلى رجل يشبهه أقرب الشبه فى العصر الحديث ، وهو حاكم الإقليم المعروف ببحر الجاموس من أقاليم السودان فى أعالى النيل ، وهو كسائر الحكام هناك انجليزى صميم لعله لا يحمل اللقب من الترك ولا من المصريين ، ولكنه « والى » والوالى هناك لا يكون إلا « باشا » فى لسان رعاياه ، مجاراة للعرف الذى شاع فى تلك الأقاليم النائية منذ سموا بالولاة العثمانيين

ولم يكن اسمه بيلاطس ولكنه عرف باسم بريدج ، أو قد شاء المؤلف أن يعرفه لنا بهذه التسمية ، وقد عالج مسألة كالتى عالجها الوالى الرومانى على نحو كالذى انتحاه ذلك السلف القديم ، فهو من ثم بيلاطس حديث !

وبيلاطس باشا هو اسم الرواية التى تقص لنا نبأه مع مسيحه عيسى بن النجار ، وتشرح لنا من أحوال السودان الأعلى ما يغنى عن مطولات فى السياحة والتاريخ ، وتتمثل لنا بقلم مؤلفها ميكائيل فوسيت Michael Fausset وثيقة صحيحة من وثائق الاستعمار البريطانى فى القارة الأفريقية

أول فائدة تستفاد من قراءة هذه الرواية أن يأتى عليها القارئ الذى له معرفة يسيرة بأهل السودان فلا يلبث أن يقول : نعم ! هذا يحصل !

ثم يرجع إلى تاريخ السيد المسيح فيرى من الموافقة والمخالفة ما يدله على الجائز وغير الجائز من ذلك التاريخ ، ويقول على بصيرة : نعم هذا محتمل الحصول ، وهذا لا يقع فى الاحتمال

ولا ريب عندنا فى أن المؤلف قد جهد بعض الجهد لتقريب الموافقة والمشابهة بين التاريخين

فاسم المهدى السودانى الذى تحدث عنه « عيسى » ، واسم أمه « مريم » ، واسم الخاطئة التى صبت على رأسه الطيب مريم المغربية ، وصناعة الرجل الذى دل عليه الصرافة ، وكراماته أو الكرامات المنسوبة إليه شبيهة بمعجزات السيد المسيح ، والحوار بينه وبين المدير بريدج كالحوار بين المسيح عليه السلام وبيلاطس ، والأسباب التى أثارت الجمهرة ورجال الدين على مهدى السودان الأعلى هى الأسباب التى أثارت الجمهرة والأحبار على رسول الناصرة ، والموعد يوم عيد ، وكل شىء متفق متقارب حتى رجاء الشعب من الحاكم أن يطلق لهم نخاساً سفاكا للدماء كعادته فى العفو عن بعض المسجونين فى أيام الأعياد

ولكن العجيب من أمر الرواية أن من يجهل تاريخ المسيحية يقرأها فلا يستغربها ولا يشعر بجهد المؤلف فى ذلك التقريب والتوفيق لأنها إذا حصلت فأغلب الظن أن تحصل هكذا بغير اختلاف كبير

وقد سمعنا نحن بأنبياء مهدين متعددين ظهروا فى تلك الأقاليم، وسمعنا عن واحد منهم أباح بعض المحرمات ورفع بعض التكاليف، واحتج لذلك بما شاء من التعللات والتأويلات. ويخيل إلينا أنه هو هذا الذى عناه صاحب الرواية لقربه من مكانها، وقربه كذلك من زمانها، وهو حوالى مقتل «لى ستاك» حاكم السودان، فإن كان فى الرواية توفيق مقصود فليست فيها مبالغة ولا شذوذ عن المعقول

***

على أن القارئ لا يستفيد هذه الفائدة وحدها من قراءة الرواية لأنه يعرف منها أشياء شتى عن أساليب الإنجليز فى استعمارهم لأمثال تلك الأرجاء، وسياستهم لأمثال تلك الشعوب، واضطلاعهم بتصريف الأزمات وهم بعيدون عن الرؤساء كلما طرأ من الحوازب ما يدعو إلى تصرف سريع

فالحاكم «بريدج» يعرف العربية معرفة جيدة، وهو ومساعدوه يقرأون تاريخ النوبة وتاريخ الإسلام وسيرة النبى عليه السلام ومذاهب العلماء فى الظواهر النفسية والنقائض الاجتماعية، ويتتبعون أخبار الاستعمار فى الدول الأخرى فيعتبرون بها أو يقيسون عليها ويأخذون بصوابها ويجتنبون أخطاءها

فإذا شغلوا الناس بالألعاب والمسابقات فى المواسم الوطنية أو المواسم الإنجليزية فلعلة يصنعون ذلك لا لمجرد اللهو وتزجية الفراغ. أو كما جاء على لسان واحد منهم وهو يتكلم عن الحاكم: «لقد تعلم مما قرأ عن مجرى الأمور فى ميلانيزيا وغيرها من جزائر المحيط الهادى، فإن المبشرين هنالك قد غيروا من عقائد أبناء البلاد، فأعرض هؤلاء عن المراك فيما بينهم وزهدوا فى الرقص وليالى السرور، وضعفت فى نفوسهم حمية الحياة وشهوة البقاء. إنهم لا يعيشون أو لا يرسلون شعلة الحياة إلى مابعدهم من الأجيال فهم على وشك الانقراض. وهكذا يحدث هنا فيوشك أن ينقرض القوم أو هم على الأكثر متماسكون لا ينمون مع الأيام. لقد منعنا الغزاة أن يقتتلوا، ومنعنا العرب أن يغيروا على الغزاة، فشق على هؤلاء وهؤلاء أن يشغلوا أنفسهم وأن يفنأوا ما فى طبائعهم من شوق إلى الصيد والنضال، وفارقتهم حماسة العيش. فهذا الذى جعل الحاكم بريدج مهموماً بإيقاظ تلك الطبائع وتوجيهها بعد تهذيبها إلى حب الرياضة والمغالبة فى هذا المضمار.

وجاء على لسان أحدهم: «من هم المسلمون حق الإسلام فى زماننا هذا؟! إنهم لنحن نحن طلاب الحقائق العلمية. إنهم لنحن نحن أصحاب الإيمان بالتوحيد الشامل لأبعد الكواكب وأصغر الذرات، وعلى ديننا هذا يدور العمل وتأتى الأعاجيب من اليابان إلى فلباريزو، ومن رأس الرجاء إلى سبتزبرجن، إلى ماوراء هذه وتلك من أرجاء القطبين. نحن نطلب الحق وليس غير الحق نطلب. ونحن لا نتبع نبياً واحداً ولكننا نستقصى كل شىء، ونمحص كل شىء، وننبذ كل باطل. ونرفض كل ضلال»

***

ومع عناية هؤلاء الحاكمين بالخفايا النفسية فى الرعايا الفطريين أو ذوى النصيب المحدود من الحضارة تراهم لا ينسون العناية بإرضاء القوم ومجاراتهم فيما يشتهون مما لا ضرر فيه

فيبعث الزعيم من الزعماء البدويين إلى الحاكم فى طلب طبيب يشفيه من عرج مزمن فلا يرده الحاكم ولا ييئسه من الشفاء، بل يكلف خير أطبائه أن يحمل معه الجهاز الكهربائى والبلاسم الضرورية ويزوده بالنصائح التى تنفعه عند الرجل وذويه... ثم لا ينسى أن يهمس فى أذنه وهو منصرف: ولا تنس أن تأخذ معك شيئاً من عقاقير الباه فإنهم سائلوك عنها لا محالة وفى مقدمتهم المريض!

***

وإذا حسن لديهم أن يتوخوا مظاهر الهيبة بين المحكومين فليس ذلك بمانعهم أن يحتالوا على تمليقهم ومجاملتهم كأنهم خدم مسخرون فى طاعة السادة ذوى الأهواء والبدوات. وهكذا يساس الملك فى جميع الأقطار، ولا سيما فى أقطار يلخص حاكمها مشاكلها كلها فيقول: إنها تنحصر فى مشكلة واحدة وهى: «مسافات الأماكن ومسافات الأحوال»

عباس محمود العقاد